جامعة عين شمس
كلية البنات للآداب والعلوم والتربية
قسم التاريخ

رسالة ماجستير في الآداب

بعنوان

الفكرة القومية بين المفهوم الديني والمفهوم المدني

دراسة في تاريخ الفكر السياسي في مصر

من سبعينيات القرن ١٩ إلى ثورة ١٩١٩

مقدمة من الطالب

عبد المنعم محمد سعيد السيد أحمد صالح

للحصول على درجة الماجستير في الآداب

تحت إشراف

أ.د / يونان لبيب رزق أ.د / أحمد زكريا الشلق

أ.د /فاطمة علم الدين عبد الواحد

العام الجامعي

٢٠٠٩-٢٠١٠

جامعة عين شمس
كلية البنات للآداب والعلوم والتربية
قسم التاريخ

شكـر وتقدير

أشكر السادة الأساتذة الذين قاموا بالإشراف وهم :-

١. أ.د / يونان لبيب رزق
٢. أ.د أحمد زكريا الشلق
٣. أ.د/ فاطمة علم الدين

أتوجه بالشكر والعرفان إلى السادة الأساتذة الذين مدوا لي يد العون لإنجاز هذه الرسالة :-

١. أ.د / لطيفة محمد سالم
٢. أ.د /محمد صابر عرب
٣. أ.د / عبد الخالق محمد لاشين
٤. أ.د / جمال زكريا قاسم

وأتوجه بالشكر إلى الهيئات الآتية لحسن تعاونهم لإنجاز هذه الرسالة:-

١. المكتبة المركزية – جامعة عين شمس
٢. مركز تاريخ مصر المعاصر– دار الكتب والوثائق القومية
٣. مركز تاريخ الأهرام – مؤسسة الأهرام

مستخلص الرسالة

تتناول هذه الدراسة تأثر الفكرة القومية في مصر بالانتماء الديني في الفترة من سبعينيات القرن ١٩ إلى ثورة ١٩١٩، وتنطلق من فرضيتين أساسيتين : الفرضية الأولى هي هيمنة الفكرة الدينية على الفكرة القومية في مصر إبان فترة الدراسة ، والفرضية الثانية هي وجود مستويين لإدراك الذات القومية ؛ المستوى الأول هو مستوى الصفوة السياسية والفكرية ، و المستوى الثاني هو المستوى الجماهيري. وتحاول في جانب منها تحديد مفاهيم بالغة الأهمية مثل مفهوم الأمة ومفهوم الوطن ومفهوم المواطنة ووضعها في سياقها التاريخي في تلك الفترة، وتتبع ذلك التشابك والتناقض والصراع بين المفهوم الديني للجامعة السياسية والرابطة القومية وبين المفهوم المدني العلماني لتلك الجامعة والرابطة، وقامت بتتبع المسار الذي اتخذه الصراع بين المفهومين وخلفية كل مفهوم والأسباب التي أدت إلي بلورة كلاً منهما، ورصد عملية الجدل بينهما والكيفية التي تم بها التعامل مع الدين في مشروع النهضة ، أو في واحدة من أهم تجلياته، ومدى التوافق والمنازعة بينه وبين المشروع ككل ، ومدى التقارب والتباعد بين الجامعة السياسية العلمانية والجامعة الدينية ، وإلي أي مدى تم اعتبار الدين محدداً من محددات الهوية ، كما حاولت الدراسة تتبع دوافع ونتائج تسييس الدين وتوظيفه كدعوة سياسية تعبوية لمواجهة الهجوم الغربي الذي اشتد منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وكيف تم اللجوء للدين ورموزه كعامل حشد وتحفيز في مواجهة هذا الهجوم ، وأثر ذلك على توجيه الجامعة السياسية وعلى تحولات الفكرة القومية ، وهل استطاعت الرابطة السياسية العلمانية أو الجامعة الوطنية ذات المرتكز العلماني توفير ذلك التحفيز والحشد ، وكيف تم البحث عن هوية محددة في الدين ، وكيف تم الدمج بين الانتماء الديني والانتماء الوطني وأثر ذلك الدمج ، وحاولت الدراسة القيام برصد العلاقة بين الجهاد الديني والنضال الوطني وتوضيح المحتوى الديني لهذا النضال ، وما هو حجمه وتأثيره ، كذلك رصدت الدراسة الأثر الذي تركه اللجوء المتزايد للدين كعامل تحفيز وحشد ومواجهة على العلاقة بين المسلمين والأقباط في الفترة المدروسة.

الكلمات المفتاحية: تاريخ/ تاريخ مصر الحديث والمعاصر/ تاريخ الفكر السياسي في مصر

٧

مقدمة		أ– و
الفصل التمهيدي	الدولة والأمة والوطن بين السياق الغربي والسياق الإسلامي	١–٤٦
	مدخل.....	٣–٥
	القومية..صعوبات التعريف ومفارقات اللغة.....	٥–١٢
	نموذج الدولة القومية.....	١٢–١٧
	مفهوم المواطنة.....	١٧–١٨
	القومية والحداثة.....	١٨–١٩
	الدين والقومية.....	١٩–٢١
	الدولة والأمة.....	٢١–٢٤
	اختلاق الأمم.....	٢٤–٢٩
	مفهوم المثقف.....	٣٠–٣٢
	الأمة والدولة في السياق الإسلامي.....	٣٢–٣٤
	الأمة بين المفهوم الديني والمفهوم المدني.....	٣٤–٣٦
	مفهوم الوطن في السياق الإسلامي.....	٣٦–٣٩
	مصر..الوطن والهوية.....	٣٩–٤١
	صدام المفاهيم..الحملة الفرنسية.....	٤١–٤٦
الفصل الأول	محمد علي.. بناء الدولة وخلق الهوية	٤٧–٩٨
	الدولة في سياق تاريخ مصر.....	٤٩–٥١
	الفوضى وبدايات الدولة الحديثة.....	٥٢–٥٩
	السعي نحو الاستقلال..محمد علي بين المصرية والعثمانية.....	٦٠–٧١
	حرب الشرعية..من يتحدث باسم الإسلام؟.....	٧١–٧٥
	محمد علي عروبيا.....	٧٥–٨١
	الاستقلال المجهض.....	٨١–٨٧
	التسوية..مصر دولة مشروطة.....	٨٧–٩٠
	الوطن والخريطة والتعداد.....	٩٠–٩٢
	الدولة والهوية الوطنية.....	٩٣–٩٨
الفصل الثاني	رفاعة الطهطاوي..الدين وايدولوجيا الدولة الوطنية	٩٩–١٣٨

	الطهطاوي وصيغة التوفيق بين الإسلام والغرب.....	١٠١-١٠٤
	الطهطاوي من العثمانية إلى المصرية.....	١٠٤-١٠٩
	مفهوم الوطن عند الطهطاوي.....	١٠٩-١١٦
	يوتوبيا مصر الفرعونية.....	١١٧-١٢١
	مفهوم الأمة عند الطهطاوي.....	١٢١-١٢٤
	المواطنة وحقوقها في فكر الطهطاوي.....	١٢٤-١٣١
	رؤية الطهطاوي لمواطنة الأجانب.....	١٣١-١٣٣
	الطهطاوي مُؤَدلَجَاً..محاولة للتفسير.....	١٣٣-١٣٧
الفصل الثالث	المسألة القومية في الثورة العرابية	١٣٩-١٧٦
	نشأة البرجوازية المصرية.....	١٤١-١٥٠
	نمو الوعي القومي المصري.....	١٥٠-١٥٩
	عروبة الثورة.....	١٥٩-١٦٣
	الدين والثورة.....	١٦٣-١٧٦
الفصل الرابع	الجامعة الإسلامية والوطنية المصرية	١٧٧-٢٢٠
	الإسلام والإمبريالية..الجامعة الإسلامية في فكر الأفغاني.....	١٧٩-١٩٣
	مصطفى كامل بين الجامعة الإسلامية والوطنية المصرية.....	١٩٣-٢٠٣
	المواطنة في فكر مصطفى كامل.....	٢٠٣-٢٠٧
	جدلية الدين والوطنية.....	٢٠٧-٢١١
	الجامعة الإسلامية والوطنية المصرية..من التماهي إلى الصراع.....	٢١١-٢٢٠
الفصل الخامس	تصورات مصر الحديثة..القومية والإمبريالية	٢٢١-٢٦٢
	محمد عبده وتيار القومية الليبرالية.....	٢٢٣-٢٢٦
	الدين والقومية..رؤى مغايرة.....	٢٢٦-٢٣١
	المثقف والطبقة والرهان الخاسر.....	٢٣١-٢٣٨
	القومية المصرية ونفي الجامعة الإسلامية.....	٢٣٨-٢٤٣
	موقف لطفي السيد من الدولة العثمانية.....	٢٤٣-٢٤٧
	رؤية لطفي السيد للوطنية المصرية.....	٢٤٧-٢٥٢
	اختلاق الأمة المصرية.....	٢٥٢-٢٦١
	خاتمة	٢٦٣-٢٦٩
	مصادر الدراسة	٢٧١-٢٨٨

الدولة والأمة والوطن بين السياق الغربي والسياق الإسلامي

" الدولة هي التي تصنع الأمة وليست الأمة هي من يصنع الدولة"
بيلسودسكي

١- مدخل:

هناك نموذجان لتصور القومية: النموذج المثالي الكلاسيكي، والنموذج النقدي التفكيكي. النموذج الأول يرى أن القومية هي نتاج عملية إحيائية. أي أن الأمم والقوميات هي كيانات أزلية وأصيلة، وأن وعيها بهويتها القومية قد يتراجع أو يضعف بفعل متغيرات التاريخ الاقتصادية-الاجتماعية والسياسية والثقافية، أو هيمنة الكيانات الإمبراطورية؛ ولكن هذا الوعي لا يموت، ولا يندثر، وما إن تتوفر شروط تاريخية جديدة، مثل ضعف الكيانات الإمبراطورية الجامعة، وولادة الطليعة القومية، حتى تستعيد الأمم وعيها بهويتها القومية، وتبدأ النضال من أجل بناء الأمة- الدولة، أو تحقيق التماهي بين الأمة ودولتها القومية. وطبقا لهذا النموذج، تعتبر الأمة حقيقة تاريخية موضوعية، قديمة أزلية دائمة، لا يتطلب تجليها على مسرح التاريخ مرة أخرى سوى توفر الشروط المواتية وانطلاق النضال من أجل تحقق الدولة القومية واحتضانها لإرادة الأمة[١].

بفضل التراكم النقدي الكبير في دراسات القومية تبلور نموذج نقدي تفكيكي خلال نصف القرن الأخير[٢]؛ ووفقا لهذا التصور، الذي تتبناه هذه الدراسة؛ فإن القومية برمتها هي

---

(١) هذا المنظور هو السائد في الدراسات التي تناولت القومية طوال القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين في الدراسات الغربية، أما في مصر والعالم العربي؛ فقد شكل هذا المنظور أساس طرح زكي الأرسوزي، ميشيل عفلق، ساطع الحصري، محمد عزة دروزة، قسطنطين زريق، عبد الرحمن البزاز، وكذلك الخطاب السياسي لحزب البعث، والخطاب السياسي الناصري؛ وذلك في رؤيتهم للقومية العربية، وعبد الرحمن الرافعي في معالجة القومية المصرية، ورؤية أنطون سعادة والحزب القومي السوري للقومية السورية (سوريا الطبيعية وقبرص)، ورؤية المارونية السياسية وحزب الكتائب للقومية اللبنانية، و"القبطية السياسية " – إن صح التعبير- المنادية ب"قبطية" مصر؛ و رغم الاختلافات البينة والتناقضات والصراعات بين كل هذه التيارات؛ إلا أن أنها جميعا تلتقي في كونها خطابات جوهرانية Essentialism، تعتقد في وجود جوهر أزلي وهوية ثابتة تشكلت مرة واحدة وإلى الأبد، وهو ما يميز كل خطابات الهوية والقومية، وسنعرض لجوانب من هذه الرؤى لاحقا في هذه الدراسة.

(٢) الجهد الرئيسي في تبلور هذه الرؤية يعود لأعمال ارنست جلنر، بندكت أندرسن،إريك هوبسباوم،إدوارد سعيد، أنتوني سميث، وسوف نعرض لبعضها لاحقا في هذا الفصل. هذا ويجب الإشارة إلى أن تشارلز سميث قدم عرضا جيدا لآراء هوبسباوم، وجلنر، واندرسن، وأنتوني سميث، واعتبر مصر حالة مثالية لاختبار تلك الفرضيات، وحاول

ظاهرة حديثة، ولم يبدأ الوعي القومي في التبلور إلا في العصر الحديث، وكانت أوروبا هي الساحة التي شهدت أولى حركات الوعي القومي، وسرعان ما انتشرت الفكرة القومية في مناطق أخرى من العالم، وأصبحت إحدى أهم القوى المحركة للعالم(٣).

والهوية القومية هي نتاج عملية إنشاء، وليس إحياء، وهي في المقام الأول خطاب.فالعناصر التي تستدعى عادة باعتبارها الركائز المؤسسة للوعي القومي، مثل اللغة، والدين، والموروث الحضاري والثقافي المشترك، والجغرافيا... إلخ، وبالرغم من كونها عناصر قديمة في وجودها، إلا أن هذا الوجود لم يؤد إلى ولادة الوعي القومي. لقد ولد الوعي القومي من رحم التطورات الهائلة في الاجتماع الإنساني الحديث؛ تضخم المدن، وتوسع نطاق الطباعة والنشر، وتسارع حركة انتقال البشر والأخبار والبضائع، وولادة أنظمة التعليم الحديثة، ومن ثم بناء المدارس والجامعات، إدخال المناهج التعليمية الموحدة والمصممة مركزيا، وانهيار أو ضعف الحدود بين المؤسسات الاجتماعية التقليدية، مثل طوائف الحرف والتجار والعشائر والقبائل والطرق والمذاهب. وقد ساعدت هذه التطورات على تعزيز الوعي الجمعي وعلى بروز فكرة "الأمة". وبالتالي فإن مقولة النقاء العرقي، أو وحدة العرق، التي راجت في الخطاب القومي الأوروبي، واستعارتها الحركات القومية في آسيا وأفريقيا بعد ذلك، هي مقولة أسطورية لا تستند إلى حقائق تاريخية، إذ أن أغلب الشعوب التي شهدت حركات قومية أو تبلورا لوعي قومي تعود في الحقيقة إلى أصول عرقية مختلطة. وفي خضم عملية بناء الهوية يتم إنجاز تاريخ جديد للأمم، يستند في بعض جوانبه إلى تصور وقراءة قومية استردادية للتاريخ، ومن ثم تضخيم جوانب معينة من هذا التاريخ وإغفال جوانب أخرى.(٤)

تقديم تفسير للقومية في مصر على ضوئها، وذلك في إطار نقده لمنهجية إسرائيل جرشوني، وجيمس جانكوفسكي، أنظر:

Smith , Charles D.: Imagined Identities، Imagined Nationalisms: Print Culture and Egyptian Nationalism in Light of Recent Scholarship, International Journal of Middle East Studies, Vol. 29, No. 4, (Nov., 1997) , pp. 609-622.

(٣) عن مدى تأثير التصور الغربي للقومية ومركزيته، راجع:

Chatterjee, Partha: The Nation and its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories, Princeton University Press, 1993, p.5. وبارثا تشاترجي هي من أبرز الباحثين في تيار ما بعد الكولونيالية، وما يعرف ب"دراسات التابع".

(٤) لعرض موسع لهذه الآراء،راجع:

بشير موسى نافع: هويات متراكمة، هويات متقاطعة، أم هويات متصارعة،المستقبل العربي، العدد٣٧٧،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٠،ص ١١٧-١٢١؛كذلك:

Spencer, Philip, Wollman, Howard: Nationalism: a critical introduction, SAGE, London, 2002, pp.17-23, 26-55.

ولمناقشة هذه القضايا في ضوء الواقع السياسي المعاصر في الشرق الأوسط، راجع: هاليدي ، فرد: الأمة والدين في الشرق

٢- القومية: صعوبات التعريف ومفارقات اللغة[٥]:

أثبت مصطلح القومية وما يرتبط به من مصطلحات مثل الأمة، الدولة، الجنسية، الوطنية، أنها كلها صعبة التعريف صعوبة كبيرة ناهيك عن تحليلها. وعلى النقيض من التأثير الكبير للقومية في العالم الحديث فإن التنظير لها ظل ضعيفا وصعبا للغاية. وعلى الرغم من دور القومية في السياسة العالمية خلال القرنين الماضيين فإنها ظلت ظاهرة سياسية - اجتماعية غير مفهومة بصورة واضحة ومحددة[٦]. فمفهوم " القومية" لا يعني نفس الشيء في كل مكان، كما أن لفظ " أمة " استخدم بمعان مختلفة وأحيانا متناقضة. ولعل هذا الاختلاف تكمن جذوره في تضارب الأيدلوجيات، و عدم وضوح المصطلحات وثباتها؛ مما أدى لاختلاط الأفكار وعدم القدرة على الاتفاق على تعريف محدد للقومية[٧].

والنتيجة النهائية التي يكاد يجمع عليها الباحثون أنه لا يوجد تعريف للقومية يمكن أن يضم كل العوامل والجوانب أو حتى معظمها، وصار من المعترف به أن محاولة إيجاد تعريف مشترك أو محدد للقومية محاولة فاشلة. ويلاحظ هوجستون واطسن- مؤلف أفضل النصوص وأكثرها فهما فى اللغة الإنجليزية عن القومية، أنه لا يمكن استخلاص تعريف علمي لكلمة "القومية"، ومع ذلك فإنها كظاهرة سياسية كانت وما زالت موجودة[٨]. ويوافقه في الرأي هرتز،الذي يرى أن القومية رغم إنها أقوى عامل في السياسة الحديثة؛ إلا أنها أكثرها غموضا.[٩] والنتيجة التي يصل إليها معظم دارسي القومية أنها مفهوم ملتبس وعصي على التحديد.[١٠]

والمصدر الأساسي للصعوبات فى فهم القومية يرجع لتعدد العوامل التي تحدد على أساسها: الأرض- العرق- اللغة - التاريخ - التقاليد- الدين- الثقافة- الاقتصاد... إلخ[١١].

الأوسط، ترجمة. عبد الإله النعيمي، دار الساقي، لندن، ٢٠٠٠،ص ٣٢-٤٧.

(٥) على عكس المتبع فلن أحاول تقديم تعريف للقومية-لا نقلا ولا نحتا- وعوضا عن ذلك فسوف أعرض الصعوبات التي تكتنف ذلك، وعرض السياق التاريخي لظهور القومية وتطورها، ومن خلال ذلك يمكن تحديد بعض عناصرها ومكوناتها الأساسية والنظريات والمفاهيم المرتبطة بها، وأهمها مفهومي"الأمة" و "الدولة".

(٦) أندرسن، بندكت ، الجماعات المتخيلة، ترجمة. محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،١٩٩٩،ص١٢.

(٧) هرتز، فردريك:القومية في التاريخ والسياسة،ترجمة.عبد الكريم أحمد، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر،القاهرة، د.ت، ص٩- ١١.

(٨) أندرسن:نفس الموضع.

(٩) هرتز: مرجع سابق،،ص ١٠-١١.

(١٠) جلنر، ارنست: الأمم والقومية، ترجمة مجيد الراضي،دار المدى، دمشق،١٩٩٩،ص ١٤٥-١٤٨.

(١١) للإطلاع على هذه العوامل بالتفصيل، راجع: ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤،ص٣٨-٥٦؛ عبد الكريم أحمد: القومية والمذاهب السياسية، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر،القاهرة، ١٩٧٠، ص٤٤-٦٠.

كما يعود في جانب منه إلى أن كثير ممن تناولوا القومية بالدراسة جاءت مواطن التركيز في دراستهم وتعريفهم لها بما يتفق واعتقادهم السياسي. والمثالان البارزان في العربية هما ساطع الحصري، وأنطون سعادة؛ فساطع الحصري أسهم مساهمة حقيقية وفعالة في تعريف القومية عبر جهد بحثي رائع وخلاق؛ إلا أنه عمل على التركيز على عامل اللغة، في مقابل العوامل الأخرى وذلك في إطار سعيه لتدعيم دعوة القومية العربية التي قامت على أساس وحدة اللغة(١٢). وفي مقابل ذلك كانت هناك الدعوات الإقليمية التي ركزت على أولوية عامل الإقليم في مقابل العوامل الأخرى والمثال البارز لهذا الاتجاه أنطون سعادة مؤسس منظر الحزب القومي السوري، والداعي إلى وحدة سوريا الكبرى(١٣).

ولا يختلف الأمر كثيرا عند الباحثين الأوربيين؛ فالباحثين الفرنسيين عملوا على تأكيد عامل مشيئة العيش المشترك وذلك لأن القومية الفرنسية اعتمدت أساسا عليه؛ ففرنسا أتمت وحدتها السياسية عقب الثورة الفرنسية ١٧٨٩واستولت على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلها الفرنسية و تطلع الفرنسيون إلى إدماج إقليم الألزاس لفرنسا(١٤)، والدولة الفرنسية ولدت قبل أن تولد الحركة القومية الفرنسية، ويمكن القول إن الدولة هي التي "فرنست" فرنسا وشعبها(١٥)، بينما عمل الباحثون الألمان على التركيز على عامل اللغة التي تضم المتحدثين بالألمانية وذلك اتساقا مع مشروع الوحدة الألمانية ولمواجهة الدعوات الفرنسية في ضم أقاليم يتحدث أهلها الألمانية؛ فالحركة القومية الألمانية صاغ خطابها ناشطون ومفكرون وفلاسفة وسياسيون، وهي التي دفعت باتجاه الوحدة الألمانية، وبروز الدولة الألمانية الموحدة. كذلك ركزت الدراسات الألمانية على دور الإقليم المركزي في توحيد الأقاليم الأخرى المتحدثة بنفس اللغة انطلاقا من دور بروسيا في توحيد ألمانيا(١٦). و قدم الباحثون الإنجليز والأمريكيون تعريفات وتنظيرات تتسق والإطار التاريخي والتجربة السياسية لبلادهم.

وفي جانب أخر نجد أن الماركسية ركزت على عامل الصراع الطبقي ودور العوامل المادية في تشكيل الأيدلوجية، و دور البرجوازية في اختلاق القومية، وركز الماركسيون على العوامل

---

(١٢) يرى الحصري أن اللغة هي: "روح الأمة وحياتها...ومحور القومية وعمودها الفقري و أهم مقوماتها ومشخصاتها"، أنظر: ساطع الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، ص٤٣.

(١٣) للإطلاع على أفكاره أنظر، أنطون سعادة:نشوء الأمم، دارالثقافة، بيروت،١٩٥٧؛كذلك:

Nassar , Nassif : Saadeh and the Concept of Regional Nationalism, in: Adel Beshara (ed.): Antun Saadeh, The Man, His Thought: An Anthology, Ithaca Press، U.K.,2007, pp. 81-120.

(١٤) ساطع الحصري:آراء وأحاديث في القومية العربية،القاهرة،١٩٤٤، ص ٦٧.

(١٥) عن العلاقة بين مفهوم"الأمة" و"الدولة" في فرنسا في تلك الفترة ،راجع:

Bell, David Avrom: The cult of the nation in France: inventing nationalism, 1680–1800, Harvard University Press, 2003, pp.17-21.

(١٦) نور الدين حاطوم:القومية الألمانية،معهد البحوث والدراسات العربية،القاهرة، ١٩٧٠،ص١١-١٢.

الاقتصادية للقومية في مقابل باقي العوامل[١٧].

وبناء على ذلك، يمكن حصر عدة نظريات تفسيرية لمفهوم القومية؛ منها نظرية ترى أن القومية تقوم على أساس وحدة اللغة: ويستند أصحابها إلى مثل الوحدة الألمانية والإيطالية واستقلال بولونيا. وفي المقابل فإن اللغة قامت بدور أساسي في انهيار الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية، فانفصلت عن الأولى كل الشعوب التي لا تتكلم التركية وعن الثانية كل الشعوب التي لا تتكلم الألمانية. النظرية الثانية تحدد القومية على أساس وحدة الإرادة "مشيئة العيش المشترك"؛ وكان أبرز من نظر لها إرنست رينان في محاضرته الشهيرة في السوربون سنة ١٨٨٢، بعنوان "ما هي الأمة" وترى هذه النظرية أن الأساس في تكوين الأمة هو رغبة ومشيئة الشعوب في العيش المشترك، بجانب التراث والتاريخ. النظرية الثالثة: تحدد القومية على أساس وحدة الحياة الاقتصادية؛ و تقف الماركسية على رأس هذا التوجه، و ترى هذه النظرية أن المصالح الاقتصادية والتماسك الاقتصادي تكون أقوى الأسس في وحدة الأمة.[١٨]

ويمكن القول إنه لم يوجد أبدا نوعا واحدا من القومية؛ بل تعددت أنواعها تبعا لاختلاف التجارب التاريخية للمجتمعات التي ظهرت فيها[١٩]. فقد كانت هناك القوميات الوحدوية التي سعت إلى وحدة الأراضي التي تقيم عليها أمة ما، وفي المقابل كانت هناك القوميات الانفصالية التي برزت مع تفكك الإمبراطوريات الكبرى في أواخر القرن التاسع عشر. وفي مقابل القوميات الإمبريالية، التي ربطت بين مجد الأمة ودورها الحضاري وبين توسعها واحتلالها لبلدان أخرى، كانت هناك القوميات التحررية التي ظهرت في المستعمرات وشكلت حركات استقلالية سعت للتحرر من الاستعمار. وظهرت قوميات الإحياء التي سعت لرسم هويات جديدة لبعض الأمم، وإعادة إحياء أمجادها القديمة[٢٠]. إضافة لبواعث أخرى متعددة وسمت قوميات متعددة بسمات مختلفة وفقا للسياق الاقتصادي- الاجتماعي وللظرف السياسي والتاريخي. والخلاصة هي أن لكل حركة قومية خصائصها وسياقها المميز والمختلف.

ونتيجة لكل ذلك تكونت مجموعة ضخمة، لا يكاد يدركها الحصر من الكتابات تنطوي على العديد من التعريفات المختلفة للقومية يركز كل واحد منها على جانب معين، ومن ثم جاءت معظم،إن لم يكن كل التعريفات، قاصرة عن استيعاب المفهوم بأكمله. إضافة إلى الالتباس الشديد حول مصطلحات مثل "الروح القومية"، و"الوعي القومي"، و"الطابع القومي" و "الشخصية القومية "، وما تعنيه بدقة[٢١].

---

(١٧) ستالين: الماركسية والمسألة القومية،دار الفارابي،بيروت، ١٩٥٧.

(١٨) سامي خشبة: مصطلحات الفكر الحديث، ج٢،الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦،ص ١٥٦.

(١٩) نور الدين حاطوم، تاريخ الحركات القومية،ج١،دار الفكر،دمشق،١٩٧٩، ص ١٨.

(٢٠) عبد الكريم أحمد:مرجع سابق،ص٢٧٧-٢٨٠.

(٢١) هرتز:مرجع سابق، ص ٣٥-٣٧.

وهناك اختلافا آخر يزيد الأمر صعوبة وتعقيدا؛ هو الاختلاف حول المصطلحات المرتبطة بالقومية باختلاف اللغات والترجمة من لغة لأخرى، فالمفاهيم بطبعها متجذرة اجتماعيا وتاريخيا وإقليميا، ولا يمكن فهمها أو تفسيرها بدون فهم هذه الحقيقة[٢٢]. وكمثال على ذلك فإن الأوروبيين، وبخاصة الانجليز والفرنسيين، يستخدمون لفظ جنسية Nationality بمعنيين مختلفين، ينطوي أحدهما على دلالة قانونية بمعنى "جنسية"، والآخر ينطوي على دلالة تاريخية اجتماعية بمعنى " قومية ". ويرجع الباحثون ذلك إلى أن الانجليز والفرنسيين سبقوا غيرهم من الأمم في التكوين بحيث أصبح مدلول "الدولة"، الذي يرتبط به تعبير "الجنسية" كمفهوم قانوني، ومفهوم "الأمة"، الذي يرتبط به تعبير "القومية" كمفهوم تاريخي اجتماعي متطابقين إلى حد كبير. وقد يكون ذلك هو السبب الرئيسي في الخلط بين المفهومين إلى جانب أسباب أخرى منها وحدة الاشتقاق في اللفظين.[٢٣] وهناك استخدام في اللغات الأوربية لمفهوم "القومية Nationalism"، بمعنى عقائدي يعبر عن وجود دعوة أو حركة قومية في حين يتم استخدام مصطلح "الجنسية Nationality " للدلالة على وضع قومي قائم فعلا، أو للدلالة على الأمة التي استكملت مقومات الدولة المستقلة[٢٤]

أما في اللغة العربية فإن مصطلحات القومية والأمة والجنسية لا تشتق من أصل واحد، فلكل منها معنى محدد بدرجة تزيد أو تنقص، ولا ينشأ اللبس إلا عند محاولة المقابلة بين هذه التعبيرات والتعبيرات المقابلة لها في اللغة الانجليزية أو الفرنسية. فقد جرى العرف في اللغة العربية على استعمال لفظ "جنسية" بالمعنى القانوني للمصطلح وحده، واستخدم تعبير "قومية" بالمعنى العقائدي فقط[٢٥]. وهو ما دعا بعض الباحثين العرب لاستخدام لفظ "تابعية" للمعنى القانوني، واستخدام لفظ "الجنسية" للدلالة على الحالة العقائدية، مع استعمال لفظ " قومية" للدلالة على الحالة الحركية عقائديا أي بمعنى يتصل "بالدعوة القومية "[٢٦]

وليس الاختلاف بين هذين التعبيرين هو مصدر اللبس الوحيد فيما يتصل بالمصطلحات المتعلقة بمفهوم القومية. بل هناك اختلاف لمدلول نفس المصطلح الواحد باختلاف الفترات التاريخية، فهناك خلاف في اللغات الأوروبية نفسها حول مدلول لفظ أمة Nation؛ فكلمة Nation كلمة أصيلة في اللغات الرومانسية، بينما هي في اللغات الأخرى كلمة دخيلة أجنبية. وفي العصور الوسطى كانت تعني "قبيلة متخلفة"، واستخدمت كذلك بمعنى الإقليم الخاص بقبيلة ما، وبعد العصور الوسطى استخدمت في ألمانيا وفرنسا بمعنى الطبقات العليا والنخبة في

---

(٢٢) هوبسباوم، إريك: الأمم والنزعة القومية، ترجمة. عدنان حسين، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٠،ص١٦.

(٢٣) عبد الكريم أحمد:مرجع سابق،ص٣٥.

(٢٤) ساطع الحصري: ما هي القومية،دار العلم للملايين،بيروت،١٩٥٩،ص ٣٨-٤٠.

(٢٥) عبد الكريم أحمد: مرجع سابق،ص٣٥-٣٦.

(٢٦) عبد الرحمن البزاز:بحوث في القومية العربية، معهد البحوث والدراسات العربية،القاهرة،ص١٨.